الليبرالية في الفكر العربي المعاصر

The concept of liberalism in the contemporary Arab thought

د/ محمد بن علي

المركز الجامعي-احمد زبانة- غليزان

mohamedbenali912@gmail.com:

مخبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر .. جامعة وهران2

ملخص:

يبقى استقبال المفاهيم الغربية في الثقافة العربية يثير الكثير من الالتباس، فمنذ عصر النهضة العربية بقي المفكر العربي يقوم بعديد المحاولات لتبيئة المفاهيم الغربية التي اطلع عليها نتيجة لاحتكاكه بالأخر، بدأ بمفهوم النهضة والمفاهيم المجاورة له وصولا إلى مفهوم الليبرالية، فهل وفّق المفكر العربي في استيعاب ملابسات هذا المفهوم ووضعه موضع الممارسة العملية؟

الكلمات المفتاحية: الليبرالية، الحرية، الفكر العربي، النهضة، الحداثة

Summary :

The reception of Western concepts in Arab culture remains a source of confusion. Since the Arab Renaissance period, the Arab thinker has made many attempts to environment the Western concepts that he was exposed to as a result of his friction with the other. He started with the concept of renaissance and neighboring concepts, including the concept of liberalism, to what extent did the Arab thinker succeed in Understand the circumstances of this concept and put it into practice ?

Keywords: liberalism; freedom; Arab thought; renaissance; modernity

أهمية البحث :

قضية الحرية في الفكرالعربي الحديث والمعاصر، تستحق الدراسة والتوقف أمامها، بتفحص وعناية- على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت الفكر العربي الحديث والمعاصر- لأنها مؤشر هام على تطور الفكر العربي، وواقعيته من جهة، وعلى قدرته على التجدد الذاتي، ومواجهة التحديات من جهة ثانية. كما أنها مؤشر على أن تقدم المجتمع، مرتبط بقضية الحرية برباط وثيق، وحقيقة الأمر، أن هذا المفهوم، لم يكن قاصراً على مجال دون آخر، ولكنه شمل جميع المجالات، التي تتصل بقضية الحرية، سواء كانت خاصة بالفرد أو المجتمع، ومن الملاحظ أن تناول قضية الحرية، تم من خلال مجموعة الأعلام، في فكرنا العربي الإسلامي الحديث والمعاصر، ساهموا في تطور مدلول الحرية وتثبيت معناها.

أهداف البحث:

يهدف البحث الى إعادة فتح نقاش علمي هادئ حول ملابسات فشل تبيئة مفهوم الحرية- سواء اعتبرناها إشكالية او مشكلة- في حاضرنا ان على المستوى الفردي او الجماعي(المجتمعي)، فعلي المستوى الفردي مازال يفهم من مفردة الحرية استباحة كل القيود والأنظمة دون مراعاة لعلاقة الحرية بمدلولات الحق والواجب والالتزام والمسؤولية. وعلى المستوى الاجتماعي نلمس ذلك الصراع الفكري الذي خلقه عدم فهم قيم الحرية، فوجدنا أنفسنا أمام صراع مؤدلج، بين قيم ترى في الحرية جانبها (الاباحي)، وقيم اخرى ترى في الحرية جانبها الاستباحي(استباحة كل شيئ). وعلى المستوى السياسي انحصر مدلول الحرية في قيم باهتة تتعالق مع مفاهيم المواطنة وحقوق الإنسان واحترام التنوع...الخ دون ان يكون لهذا التعالق مخرجات تدفع بالمجتمعات العربية الى السير قدما في تحقيق دولة الحريات والحق والقانون.

فرضية البحث:

تبنى فرضية البحث على رؤية مفادها ان الفكر(المفكر) العربي الحديث والمعاصر، تعرف على مفهوم الحرية في إطار رؤية مأزومة داخليا وخارجيا، ولم يتعرف على مفهوم الليبرالية إلا من خلال كتابات نخبوية، حاولت تبيئة هذا المفهوم واعطائه قوة وقابلية، بربطه بمدلول الحرية رغم اختلاف ظروف بروز المفهوم عند الأخر.

الدراسات السابقة:

يجد المتتبع لمختلف الكتابات التي تناولت مفهوم الحرية في الفكر الإسلامي عموما، والفكر العربي الإسلامي الحديث والمعاصر، أنها وعلى الرغم من ثرائها وتنوعها، إلا إنها بقيت تراوح نقطة الانطلاق الأولى، فإذا كانت مشكلة الرعيل الأول من المفكرين في الحضارة الإسلامية، قد تمثلت في دراسة مشكلة الحرية في مقابل مصطلح المشيئة، وجرت البحوث على منوال المقابلة بين الجبر والاختيار.(دون اغفال الدور الذي لعبته السلطة السياسية آنذاك في توجيه النقاش او الصراع الفكري بين الخصوم)، فإننا نجد طرح الفكر العربي الحديث للمشكلة، يحاول ان يجد مبررات

وجودها خارج اللحظة (والآن)، بمعنى ان البحث ذهب الى حشد براهين وجودها، إما في التراث أو في المتن الأخر الوافد، دون أن يلقى المفهوم معالجة مرتبطة بواقع الحال، الذي يئن تحت ظروف القهر والاستغلال، وهتك عرى الكرامة الإنسانية. وهنا نحيل القارئ إلى مجموعة من الدراسات التي يمكن الرجوع إليها، لتتبع ما ذكرنا أنفا: عمارة محمد: مشكلة الحرية الإنسانية عند المعتزلة- أحمد لطفي السيد: مشكلة الحريات في العالم العربي(1959)-توفيق الطويل مفهوم الحرية(1994)- زكريا ابراهيم: مشكلة الحرية(1963)- زكي نجيب محمود: عن الحرية أتحدث(1986)- عزت قرني: من خلال كتابين(طبيعة الحرية2002- تأسيس الحرية2001)- روزنتال: مفهوم الحرية في الاسلام(2007)- حصاد الفكر العربي في قضية الحرية(تأليف جماعي1980)- عبد الله العروي: مفهوم الحرية(1984)- نصّار نصيف: باب الحرية- هذا بالإضافة الى ما نشر حول الموضوع في مختلف المجلات العلمية المحكمة ولا سيما مجلة عالم الفكر. ومجلة المستقبل العربي،التي يمكن مراجعة أعدادها المتوفرة على النت.

- منهج البحث:

تقيدا بطبيعة الموضوع سوف نعمد لتوظيف المهج التاريخي، لتتبع حركية مفهوم الليبرالية وظروف نشأته. والمنهج التحليلي النقدي لرصد حركية استقبال المفهوم، وظروف تبيئته في الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة.

- المطلب الأول: الليبرالية... خلفية تاريخية للمفهوم:

من الصعب الوصول إلى تعريف دقيق و متفق عليه لليبرالية، بل إن بلورة تعريف واضح ودقيق لمفهوم الليبرالية أمرا صعبا وربما عديم الجدوى، وفي حال تحديد مفهوم الليبرالية نجد أن هذا التحديد لا ينطبق على عدد من الفلاسفة والمفكرين([1]). إن صعوبة تحديد مفهوم الليبرالية يرجع إلى كونه مجموعة "أفكار مجسدة في الواقع وموصولة بالتاريخ، بما فيه من تدافع وصراع واختلاف وتوافق، وهذا ما يجعل المفهوم يأخذ معاني متعددة، حسب القراءة المقدمة له، الأمر الذي يصبح معه الحديث عن مفهوم الليبرالية بإطلاقية سقوط في السطحية والتعميم، فالقول الغالب هو أننا نقصد بالليبرالية: تلك الأفكار والمبادئ التي ظهرت مصاحبة لظهور الرأسمالية في الغرب، وخاصة في القرن السابع عشر على يد توماس هوبز و جون لوك، وكانت موضوعة في صورة فلسفية لأن أصحابها حرصوا على تأسيسها على مبادئ كلية، ونظرة شاملة للإنسان"([2])، لكن هذا القصد سرعان ما يتزعزع عندما نصطدم بالفكرة القائلة بأن:"الليبرالية لم تكن وليد التأمل الفكري في طبيعة الإنسان والمجتمع.. ولم تكن سعيا من بعض المفكرين نحو وضع مبادئ جديدة لتنظيم المجتمع، تضمن الحرية للجميع، فلم

[1]) وليد بن صالح الرميزان، الليبرالية في السعودية و الخليج، روافد للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت، ط1،2009، ص 14

[2]) أشرف منصور، الليبرالية ،الجديدة، جذورها الفكرية و أبعادها الاقتصادية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،(ب ط)،2008،ص 23

تكن النيات الطيبة والأهداف الإنسانية النبيلة وراء ظهور الليبرالية...لقد كانت الليبرالية تعبيرا عن الطبقة البورجوازية، وعن نظرتها للإنسان والمجتمع"([1])

لقد اتخذ مصطلح الليبرالية–كواحد من المصطلحات المفتاحية في المفردات السياسية للمجتمع الحديث–موقعه في الساحة الفكرية، بداية من السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، لدى الكتاب الإسبان، لوصف زعمائهم السياسيين، الذين كانوا يدافعون عن الملكية الدستورية والحكومة البرلمانية، وسرعان ما انتقل إلى بريطانيا حيث انتقد الثوريون- أسلاف الحزب المحافظ- خصومهم بأنهم ليبراليون، لدفاعهم عن مبادئ سياسية أوربية، وليست إنجليزية، ولم يحتل المفهوم الريادة إلاّ في أربعينيات القرن التاسع عشر، وصار يدل على نظرة متماسكة إجمالا للإنسان و المجتمع، تتسم برغبة في تحرير جميع الأفراد من القيود الاعتباطية والغير ضرورية.

إذا نظرا لهذه التمايزات من الصعب أن نجيب عن سؤال ما الليبرالية؟ إجابة قطعية بل كل ما في وسعنا هو محاولة تتبع الدلالة المعجمية للمفهوم، مقرونة بالشروط الواقعية لنشأته، ومن هذه الدلالات نجد أن: "الليبرالية اتجاه عقلي يسعى في ضوء افتراضاته، لأن يحلل العلاقات الثقافية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع الإنساني، وتؤكد على تعبير الإنسان عن ذاته"([2])، ولهذا فهي ترمي إلى ترسيخ مجموعة من المفاهيم والسياسات، التي تهدف إلى منح المزيد من الحرية للفرد، وهي تؤكد سواء في مجال الفكر أو التطبيق، على فكرتين رئيسيتين:

الأولى العمل ضد السلطات التحكمية، وإحلال أشكال أخرى من التطبيقات الاجتماعية، محل هذه السلطات. والثانية: حرية التعبير عن الرأي وعن الشخصية الفردية"([3]).

مع هذه الرؤية، أصبحت الحرية الفردية تمثل مركز الريادة، في مقابل تقلص وظيفة الدولة،التي لم تعد سوى جهاز لحماية حريات المواطنين. تقول الموسوعة الأمريكية الأكاديمية مدعمة هذا الرأي "إن النظام الليبرالي الجديد (الذي ارتسم في فكر عصر التنوير)، بدأ يضع الإنسان بدل الإله في وسط الأشياء، فالناس بعقولهم المفكرة يمكنهم أن يفهموا كل شيء، ويمكنهم أن يطوروا أنفسهم ومجتمعاتهم عبر فعل نظامي وعقلاني"([4])، فالفرد حسب الليبرالية،له السيادة على هذا الكون، بما يعني ضرورة التحرر من التسلط أيّا كان نوعه، سواء تسلط الدولة أو الجماعة، أو الأفكار المسبقة أو الموروثة. وأيضا جعل الأولوية للمصالح الفردية وتغليبها على المصالح الاجتماعية. ف"الليبرالية تعتبر الحرية المبدأ والمنتهى، الباعث والهدف، الأصل والنتيجة في حياة الإنسان. وهي المنظومة الفكرية الوحيدة التي لا تطمع في شيء سوى وصف النشاط البشري الحر، وشرح أوجهه والتعليق عليه"([5]).

---

[1]) المرجع مفسه، ص23،24

[2]) فاروق أبو زيد،الفكر الليبرالي في الصحافة المصرية،عالم الكتب،(ب ط و ت)،ص 07

[3]) المرجع والصفحة نفسها.

[4]) الخراشي سليمان بن صالح،حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، (ب ،ط،ت)،ص 12،13

[5]) عبد الله العروي،مفهوم الحرية،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،ط4،2008،ص49

بينما يذهب ناصيف نصّار إلى التمييز بين بعدين لمفهوم الحرية في الحقل الدلالي لليبرالية "فإذا كانت الليبرالية كإيديولوجيات للبرجوازية، قد تمحورت حول شعار الحرية وسعت إلى تجسيد هذا الشعار في الممارسات، والمؤسسات الاقتصادية و السياسية والثقافية و التربوية والإعلامية، من وجهة نظر أفراد الطبقة البرجوازية بإطلاق، وسعت من جهتها إلى تجاوز الأطر الإيديولوجية إلى الكشف عن مضامين مبدأ الحرية ومستلزماته في الوجود البشري" ([1]). أما إذا تناولنا المفهوم من زاوية الحقول التي يعرّف من داخلها، نجد أن: الليبرالية في الحقل السياسي، ينظر إليها على أنها "مذهب سياسي يرى أنّ من المستحسن أن تزداد إلى أبعد الحدود استقلالية السلطة التشريعية والسلطة القضائية، بالنسبة إلى السلطة الإجرائية التنفيذية، وأن يعطى للمواطنين أكبر قدر من الضمانات، في مواجهة تعسف الحكم. أما في حقل الممارسة الدينية فإننا نجد الليبرالية تعبر عن "مذهب سياسي، فلسفي يرى أن الإجماع الديني ليس شرطا لازما، لتنظيم اجتماعي جيد، ويطالب ب"حرية الفكر" لكل المواطنين. أما في الميدان الاقتصادي، فالليبرالية "مذهب يرى أن الدولة لا ينبغي لها أن تتولى وظائف صناعية، ولا وظائف تجارية، وأنه لا يحق لها التدخل في العلاقات الاقتصادية، التي تقوم بين الأفراد والطبقات أو الأمم". وهكذا وخوفا من انفلات الأمور، نظرا لدعوة البعض حصر تدخل الدولة في الشرطة والعدل والدفاع العسكري، يتمنى البعض " أن توضع الليبرالية في مقابل النظرية الإنفلاتية، وهذا تغير لمفهوم الحرية (الانفلات) عندئذ يمكن أن تكون الأولى (الليبرالية)، معتبرة بوصفها النظرية الأخلاقية والسياسية، التي تتوق إلى حرية الفرد أيما توق، وتحدّ في الوقت نفسه من المطالبة أومن الحصول على هذه الحريات، عندما تغدو إباحيات مضرة بالآخر، في المقابل يمكن للنظرية الإنفلاتية أن تكون صورة للفردية التي لا تعترف بأي حد مألوف وقانوني للحرية الفردية، فهي وحدها الحَكَم على حقوق الفرد وفقا لقوته"([2])، هذا الانفلات تحدث عنه هيمون عندما قال: إن الليبرالية مرت بمراحل:

أ) مرحلة التكوين، حيث كانت وجها من وجوه الفلسفة الغربية المرتكزة على مفهوم الفرد، ومفهوم الذات.

ب) مرحلة الاكتمال، حيث كانت الأساس الذي شيّد عليه علمان عصريان هما: علم الاقتصاد، وعلم السياسية النظرية .

ج) مرحلة الاستقلال، حيث نزعت الليبرالية من أصولها كل فكرة تنتمي إلى الاتجاه الديمقراطي، بعد أن أظهرت تجربة الثورة الفرنسية أن بعض أصول الليبرالية قد تنقلب عند التطبيق إلى عناصر معادية لها، وعليه عند حديثنا عن الليبرالية، يجب أن نحدد المقصود بالفكر الليبرالي: ف"ليبرالية بعض فلاسفة عصر النهضة، لم تكن سوى وجه من أوجه الإنسية للأوروبية، أمّا ليبرالية القرن 19

[1]) ناصيف نصّار،باب الحرية،دار الطليعة،بيروت،ط1،2003،ص46

[2])لالاند،الموسوعة الفلسفية،ج2،خليل أحمد خليل،منشورات عويدات،بيروت،باريس،ط2،2001،ص 725،726

فكانت موجهة لنقد الدولة العصرية المهيمنة على الأفراد و الجماعات، أما ليبرالية نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن، فكانت تعتبر أن الدولة شرّ كله، لأنها تضيّق على المبادلات الفردية"([1]).

ما نخلص إليه أولا: هو أن الليبرالية مذهب فكري و سياسي ينادي بالحرية المطلقة في الميدان الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، والتركيز على مبدأ الاستقلالية للأفراد والمجتمعات والدول ومعناه التحرر التام من كل أنواع الإكراه الخارجي والداخلي، سواء كان دولة أم جماعة أو أفرد، ويتم التصرف وفق ما يمليه قانون النفس ورغباتها. ولكل فرد الحق والحرية في اختيار أسلوب الحياة الذي يناسبه، والعمل على تكريس الحريات ضمن عقد اجتماعي[2] تتفق عليه الأغلبية بكل صورها المادية والمعنوية، بين الدولة والمجتمع.

ثانيا: هو أن الليبرالية ظهرت كممارسة قبل أن تتشكل بوصفها لفظا اصطلاحا: بمعنى أنها من حيث وجودها بوصفها لفظا لم تظهر إلاّ لاحقا لوجودها بوصفها واقعا، إذ أنها بوصفها وجود معرفي ومجتمعي، أخذت في التبلور داخل سياق التاريخ الأوروبي، على الأقل قبل3قرون من ظهورها لفظا، والدليل على ذلك، أن كلمة ليبرالية ستظهر في اللسان الإنجليزي سنة 1819 ([3]).

هناك ارتباط شديد بين الليبرالية وفكرة الحرية والديمقراطية، بل إن اسمها مشتق في الواقع عن معنى الحرية، ومع ذلك فإن الليبرالية بمفهومها الذي استقر، تستند إلى مفهوم خاص للحرية، اتضحت معالمه بوجه خاص ابتدءا من القرن السابع عشر، فإذا كان الحديث عن الحرية والديمقراطية قديما، يجد جذوره في الفكر اليوناني، والممارسات الديمقراطية في المدن اليونانية، ثم في عديد من المدن التجارية في إيطاليا، في العصور الوسطى وعصر النهضة. فإن هذه الممارسات لا تمثل الفكر الليبرالي كما استقر معناه ومفهومه من خلال المساهمات الفكرية لآباء الفكر الليبرالي، وخاصة جون لوك، فالفكر الليبرالي ليس فقط دعوة إلى الحرية، ولكنه بالدرجة الأولى دعوة إلى الفردية واحترام مجال خاص يتمتع الفرد فيه باستقلاله وحريته،دون تدخل وإزعاج، وإذا نظرنا إلى مفهوم الحرية كما ساد في الفكر السياسي والممارسات العملية،نجد أنه تراوح بين مفهومين أساسين،الأول هو الحق في المشاركة في اتخاذ القرارات السياسية،والثاني هو الاعتراف بمجال خاص للأفراد لا يجوز التعدي عليه أو التدخل فيه([4])،وهذه هي التفرقة بين المعنى القديم والحديث للحرية، وقد أوضح بنجامين كونستانت في كتابه"الحريات القديمة والحديثة(1819)، هذه التفرقة بشكل واضح، فالحرية بالمعنى الحديث هي الاعتراف للفرد بمجال خاص، يتمتع فيه بالاستقلال ولا يخضع فيه لغير القانون، في حين أن الحرية بالمعنى القديم السائد في المدن اليونانية، ثم في المدن الإيطالية تشير إلى الحق في

[1]) عبد الله العروي،مفهوم الحرية،مرجع سابق،ص50 ،بتصرف بسيط

[2]) حول الموضوع راجع فكرة العقد الاجتماعي عند : فلاسفة العقد الاجتماعي

[3]) الطيب بوعزة،نقد الليبرالية،لم تذكر دار النشر،الرياض،السعودية،ط1،2009، ص 21

[4]) حازم الببلاوي،عن الديمقراطية الليبرالية ،دار الشروق،القاهرة،ط1،1993،ص 10،11

المشاركة في اتخاذ القرارات السياسية([1])، ووفقا لهذا المفهوم القديم فإن الفرد وهو يتمتع بالمشاركة في المسائل العامة، يكاد يعرف أي استقلال في أموره الخاصة، وعلى العكس فإن الفرد وفقا للمفهوم الحديث للحريات يتمتع بالاستقلال في حياته الخاصة، وعلى العكس لا يكاد يتمتع بأي سيادة في المسائل العامة .من الناحية التاريخية يمكن أن نميز بين ثلاثة مراحل مر بها المذهب الليبرالي:

-المرحلة الأولى: مرحلة كان يغلب عليها طابع الحرية الاقتصادية التي لا يقف أمامها أي عائق، وعكست نفسها في ذلك الشعار الشهير، "دعه يعمل دعه يمر"، وفي عدم تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي ([2]). ورغم أن الليبرالية في بداية ظهورها كانت منظومة كاملة من الحقوق الفردية، إلاّ أن الطبقة البورجوازية الصاعدة آنذاك، تمسكت بالجانب الاقتصادي لليبرالية فقط الذي كان يعطيها المبرر، بأن ما تحققه من أرباح وثروات وسيطرة، هو نتيجة لمجهودها الفردي وحسن تدبير قيامها بالمخاطرة، ولهذا وقفت هذه الطبقة في البداية ضد أي حق للآخرين، يمس أو يحد من حريتها في تعظيم أرباحها وثروتها واحتكارها للسلطة. ولهذا شهدت تلك المرحلة، وبالذات في بدايتها أبشع صنوف الاستغلال للعمال والنساء والأطفال (طول ساعات العمل وضآلة الأجور، وافتقاد الشروط الصحية والوقائية)، كما شهدت تلك المرحلة التوسع الاستعماري واستغلال شعوب المستعمرات، من قبل الدول الرأسمالية الليبرالية.

- أما **المرحلة الثانية**: فتبدأ بالازمة التي تعرض لها النظام الرأسمالي في مختلف أنحاء المعمورة، والتي انجر عنها تحطم يقينيات الفكر الكلاسيكي والنيوكلاسيكي،الذي كان ينكر إمكانية حدوث الأزمات في النظام الرأسمالي، و يدّعي عدم وجود تعارض بين المصلحة الفردية والمصلحة العامة، وقد مهد الكساد الكبير السبيل لتدخل الدولة في النشاط الاقتصادي والاجتماعي. كما أن كارثة الكساد الكبير، كانت الأرضية التي أنجبت "النظرية العامة ل كنز"عام 1936، وهي النظرية التي سيكون لها تأثير كبير على أوضاع الطبقة الوسطى في العالم. فقد أثبت كينز، أن الرأسمالية قد فقدت قدرتها التلقائية على التوازن، وأصبح بها ميل كامن يعرّضها لأزمات الدورية، بسبب الاحتمالات القوية، لعدم تناسب قوى الطلب الكلي مع قوى العرض الكلي. ولأنّ الرأسمالية عاجزة عن أن تولد من ذاتها وبطريقة تلقائية سبيل تجنب هذه الأزمات، فقد دعى إلى ضرورة تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، باعتبارها المعامل الموازن أو التعويضي لتقلبات هذا النشاط، واقترح جملة من السياسات النقدية المالية والاجتماعية، التي من شأنها الحيلولة دون حدوث الكساد أو التضخم. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أصبحت الوصفة الكينزية هي الأساس، الذي بنيت عليه السياسات الاقتصادية،في دول الغرب الرأسمالي([3]).

---

[1])المرجع نفسه، ص11

[2]) رمزي زكي،(الليبرالية الجديدة تقول وداعا للطبقة الوسطى)،مجلة عالم الفكر،ع2،مج25،أكتوبر1996،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،الكويت،ص32-69

[3]) رمزي زكي، المقال نفسه.

- المرحلة الثالثة لليبرالية: تبدأ هذه الفترة بمجموعة من الأزمات المستعصية، التي عانت منها الدول الرأسمالية الصناعية- ولا تزال- ففي بداية السبعينات، شهدت هذه الدول زيادة واضحة في معدلات البطالة، ومعدلات التضخيم في آن واحد(وهي الظاهرة التي عرفت تحت مصطلح الركود التضخمي، وتدهور معدلات النمو الاقتصادي وتراجع معدلات النمو الإنتاجية وزيادة عجز الموازنة العامة، و ارتفاع حجم الدين العام الداخلي وزيادة أسعار الطاقة...الخ.

المطلب الثاني: المفكر العربي و المفاهيم الليبرالية

الليبرالية في الفكر العربي الحديث:

في إطار انفتاح الأنا على الاخر تجب الاشارة الى الدور الذي لعبه الرحّالة العرب في بداية القرن19 من خلال الرحلات العلمية الى الغرب[1](بداية بايطاليا ،ثم فرنسا..) في تعريف المجتمع العربي بالحضارة الغربية، التي كانت تعيش قمّة مجدها، في مقابل الشرق المتخلف، فجاءت محاولات رجال هذه الرحالات لتكشف للأنا، أسباب قوة الاخر وتفوقه، وكانت النتيجة التي اتفق حولها جميع من كتبوا في هذا الإطار ان سر تقدم الغرب(فرنسا على وجه التحديد)، يكمن في نظام حكمه الذي شجع الإنسان وأعطاه مكانته. من هنا ظهرت محاولة رفاعة الطهطاوي، لتبيئة مكتسبات الحضارة الغربية عموما، والفرنسية على وجه الخصوص، فمن وجهة نظر الطهطاوي، ينبغي على المسلمين، إذا ما أردوا الخروج من حالة التخلف ومسايرة التقدم، أن يسايروا الفرنسيين في أسلوب حياتهم الاجتماعية والثقافية....الخ. ويمكن أن نبرز إعجاب الطهطاوي بالحضارة الأوربية الحديثة، من خلال كتابه "تخليص الإبريز"[2]، حيث يظهر صراع الشرق والغرب جليا، من خلال هذا الكتاب، الذي لم يكن الغرض من ورائه وصف الغرب، بقدر ما كان يهدف إلى نقد العالم العربي، من خلال الغرب، فبالرغم من أن كتاب تخليص الإبريز، هو وصف للغرب في صورة باريس([3])، إلاّ أن الواقع المعاش كان دائما حاضرا، من خلال المقارنات التي كان يعقدها الطهطاوي، بين باريس ومصر، داعيا بني جلدته إلى مواكبة الغرب، والاطلاع على منشآته .

لقد آمن الطهطاوي بالعديد من مفاهيم الليبرالية الفرنسية، كالحرية والمساواة والتسامح، حيث شكلت الحرية هاجساً كبيراً عنده، مما جعله يخصص لها جانباً كبيراً في فكره ومؤلفاته، غير أنه ربط موضوع الحرية بمسألة الحقوق المدنية، واعتبر أن ذلك ليس من سمات الفكر الغربي فحسب، بل هو سمة من سمات الفكر الإسلامي، لأن المسلمين قد مارسوا الحرية وتفاعلوا معها، وأن الإسلام قد شرّعها ، ولكن بمفهوم أعم وأشمل من مفهومها عند الغربيين، وهو مفهوم" **العدل**"، وبناء على ذلك، يمكن إعادة صياغتها، وبعثها من جديد في إطار التجربة الغربية، وذلك باعتبارها وسيلة من وسائل

[1]) انظر تفصيل الموضوع في: سابا يارد ، نازك، الرّحالون العرب وحضارة الغرب، في النهضة العربية الحديثة.

[2]) وبشكل اكثر تنظيم وعمق في كتابه: **المرشد الامين للبنات والبنين** الذي يعد بمثابة مرجع هام في قضايا التربية والمواطنة وحقوق المرأة

[3]) عمارة محمد،الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي،ج3،المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع،(ب. ط)،1973،ص39

التقدم والرقي. وكان الطهطاوي يرى أن أهم ما يميز الممارسة السياسية الغربية في عهده، عن الممارسة السياسية العربية الإسلامية، هو أن الأولى قائمة على مبدأي الحرية والعدالة، والثانية ينعدم فيها هذان المبدآن، فكانت الدول الأولى متحضرة ومتمدنة، لأنها تستند إلى مبدأ وشرط التحضر، بينما الثانية متخلفة ومتأخرة، لأن شروط التحضر والتمدن تنعدم فيها.

لكن الطهطاوي ورغم إيمانه بمفاهيم التنوير وقيم الليبرالية، إلاّ أنه بقي مشدود إلى مرجعيته الأزهرية، حيث كان يقيم التعامل مع الحضارة الغربية، في إطار نظرة معيارية دينية، تتعامل مع الغرب من منظور الكفر والإيمان. وعلى نفس المنوال سعى خير الدين التونسي إلى تبيان الدليل، على نجاعة مواكبة الحضارة الأوربية، والاقتباس منها، من أجل إحداث الوثبة، على مستوى العقل والممارسة، حيث تظهر هذه النزعة، من خلال عرضه للغرض من وراء تأليف كتابه " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك "، الذي جاء فيه: "ما دعانا لجمع هذا التأليف...أمران آيلان إلى مقصد واحد، أحدهما إغراء ذوي الغيرة والحزم، من رجال السياسة والعلم، بالتماس ما يمكن من الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الإسلامية، وتنمية أسباب تمدنها"، هدف أدرك خير الدين التونسي أنه يستحيل تحقيقه، مالم تتوفر له الأرضية المناسبة، المتمثلة في"حسن الإمارة المتولدة من الأمن، المتولد من الأمل، المتولد من إتقان العمل، المشاهد في الممالك الأورباوية بالعيان"([1]).

أما الأمر الثاني الذي قصد من ورائه تأليف كتابه هذا فهو :"تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين، عن تماديهم في الإعراض عمّا يحمد من سيرة الغير، الموافقة لشرعنا، بمجرد ما انتقش في عقولهم، من أنّ جميع ما عليه غير المسلم، من السيّر والتراتيب ينبغي أن يهجر([2]). ولذلك دعا إلى اقتباس الأفكار السياسية والاقتصادية، كون مثل هذه الاقتباسات، تتوافق مع روح الشريعة، داعيا إلى تقليد الغرب فيما ينفع ولا يتعارض مع الشرع، وترك مالا ينفع، مستشهدا على ذلك بقوله; الشرع لم ينه عن التشبه بمن يفعل ما أذن الله فيه ... أن صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد، لا تضر على أناّ إذا تأملنا في حالة هؤلاء المنكرين، لما يحسن من أعمال الإفرنج، نجدهم يمتنعون عن مجاراتهم، فيما ينفع من التنظيمات ونتائجها، ولا يمتنعون منها فيما يضرهم، وذلك أنّا نراهم يتنافسون في الملابس وأثاث المساكن، ونحوها من الضروريات([3])، فالشريعة لا تنافي تأسيس التنظيمات السياسية، المقوية لأسباب التمدن ونمو العمران...فالأمر إذا كان صادرا عن غيرنا، وكان موافق للأدلة، لاسيما إذا كنّا عليه، وأخذ منّا، فلا وجه لإنكاره وإهماله، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله([4]).

---

[1]) التونسي خير الدين،أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ،مطبعة الدولة، تونس،ط،1 (بدون تاريخ)،ص5

[2]) المصدر والصفحة نفسها.

[3]) المصدر نفسه،ص7.

[4]) شرابي هشام، المثقفون العرب والغرب،دار النهار،بيروت، ط2،(ب، تاريخ)،ص57

إن أكثر ما استحدثه الأوربيون-حسب خير الدين التونسي- هو امتداد لما كانت عليه شعوبنا، ولو أننا تابعنا مسيرتنا الحضارية، لوصلنا إلى ما وصلوا إليه، بل إنه يرى أن العالم وحدة متماسكة، وأن أي إنجاز إنساني وحضاري، هو في مصلحة الجنس البشري، جميعه وحق له، ولا عبرة في اختلاف الأديان فإن كل متمسك بديانته، وإن كان يرى غيره ضالا في ديانته،فذلك لا يمنعه من الإقتداء به، فيما يستحسن في نفسه، من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية، كما تفعله الأمة الإفرنجية، فإنهم مازالوا يقتدون بغيرهم، في كل ما يرونه حسنا من أعماله، حتى بلغو في استقامة نظام دنياهم، ما هو مشاهد([1]). وهو ينكر على الذين يعارضون الإقتداء بالتجربة الأوربية، بحجة مخالفتها للشريعة في حين أن الإفادة من علم الغرب ومعرفته وتقدمه العمراني، والحذو حذوه ضمن تجربة خاصة، هو الذي يحفظ استقلالنا، وهل يظن هؤلاء المنكرون إن ذلك ممكن دون تقدم في المعارف وأسباب العمران مشاهدة عند غيرنا([32]). وفي تناوله لمصطلح الحرية يسير على الرأى الذي صادفناه عند الطهطاوي ،فرأى أن الحرية ملازمة للعدل، وأنها على هذا الأساس،أصل من أصول الشريعة، ومن هنا فإنه يدخل مباشرة في الحديث عنها، معرفا بها، معددا أقسامها، فالحرية عنده تنقسم إلى قسمين رئيسيين:

- الحرية الشخصية: هي إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله، ومساواته لأبناء جنسه لدى الحكم، بحيث أن الإنسان لا يخشى هضيمة في ذاته، ولا في سائل حقوقه، ولا يحكم عليه بشيء لا تقتضيه قوانين البلاد المقررة، وبالجملة فالقوانين تقيد الرعاة كما تقيد الرعية.

- الحرية السياسية: وتعنى مشاركة المواطنين في سياسة الدولة، وإبداء الرأي فيما هو أصلح لها، على نحو ما أشير إليه، بقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب،"من رأي منكم في اعوجاجا فليقومه"، يعني انحرافا في سياسته للأمة وسيرته معها، ولكن لما كانت الديمقراطية المباشرة، كممارسة للحرية السياسية، بالمعنى الذي أشار إليه الخليفة العربي، غير ممكنة في هذه الأيام، فقد استبدلت الديمقراطية المباشرة بديمقراطية تمثيلية تجسدها المجالس النيابية المنتخبة، فالفرق بين الحرية السياسية عند العرب، والحرية السياسية كما عرفتها أوروبا في القرن التاسع عشر، هو فرق يعود إلى اختلاف الأزمنة، وإلى الحاجة إلى تقنيين هذه الحرية وتنظيمها، منعا للهرج، وضمانا للضبط، ذلك أنه لما كان إعطاء الحرية بهذا المعنى (الديمقراطية المباشرة التي عبر عنها عمر بن الخطاب) لسائر الأهالي، مظنة لتشتيت الآراء، وحصول الهرج، عدل عنه، إلى كون الأهالي ينتخبون طائفة من أهل المعرفة والمروءة، تسمي عند الأوروبيين بمجلس نواب الأمة، وتسمى عندنا بأهل الحل والعقد.

[1]) المرجع و الصفحة نفسها.

[2])

3

لقد شكل الخطاب الليبرالي العربي-الإسلامي[1]، عند الرعيل الأول من المفكرين دعوة صريحة لإتباع خطوات النهضة الأوروبية، للخروج من مأزق التخلف. ورأى أن العالم العربي يجب أن ينشئ هيئات سياسية وإدارية واجتماعية على الطريقة الأوروبية.

الليبرالية في الفكر العربي المعاصر:

نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين وبعد 11 سبتمبر 2001 على وجه الخصوص، الذي يعتبر فاصلا تاريخيا عربيا كما هو من الفواصل التاريخية الأمريكية أيضا، ظهر جيل جديد من الليبراليين الجدد " وهؤلاء نادوا بعصر تنوير جديد وهو مقدمة لفلسفة المستقبل، وتبنوا أفكار تنويريّ القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وكذلك أفكار الليبيراليين الذين جاءوا في النصف الثاني من القرن العشرين، وأضافوا إليها جملة من المبادئ التي بينت مواقفهم من الدين والتراث والعقل من جهة، ورؤيتهم للعلاقة مع الأخر (ثقافيا وسياسيا) من جهة أخرى .والتي تعتبر بمثابة مسودة **لبيان** الجيل الجديد من الليبراليين العر ([2]):

- موقفهم من الدين:

1- المطالبة بإصرار بالإصلاح التعليمي الديني الظلامي، في ظل سيادة الإرهاب الديني، بعد أن تم خطف الإسلام وتزويره وأدلجته أدلجة دموية مسلحة.

2- الدعوة إلى محاربة الإرهاب الديني والقومي السياسي والدموي المسلح بكافة أشكاله.

3- تأكيد إخضاع المقدس والتراث والتشريع والقيم الأخلاقية للنقد العميق، وتطبيق النقد العلمي العقلاني.

4- اعتبار الموقف العدائي مع الآخرين موقفا جاء بناءا على ظروف سياسية واجتماعية معينة قبل أربعة عشر قرنا، ولم تعد هذه الظروف قائمة الآن، وإنما تغيرت تغيرا كليا، ولذا يجب عدم الإستعانة مطلقا بالمواقف الدينية، التي جاءت في الكتاب المقدس تجاه الآخرين قبل خمسة عشر قرنا لمهاجمة الآخرين الآن وسفك دمائهم، فالمصالح متغيرة، والمواقف متغيرة والتغير هو سنة الحياة([3])

5- اعتبار الأحكام الشرعية أحكاما وضعت لزمانها ومكانها، وليست أحكاما عابرة للتاريخ كما يدعي بعض رجال الدين، ومثالها الأكبر حجاب المرأة وميراث المرأة، وشهادة المرأة، وتولي المرأة المناصب السياسية والقضائية العليا....الخ

[1]) يلاحظ القارئ أننا اقتصرنا على ذكر الطهطاوي وخير الدين التونسي ضمن هذا المدخل رغم أننا نجد الكثير من المفكرين العرب ممن كانت كتاباتهم تنحوا منحى يدعو إلى قيم الحرية واقتباس النموذج النهضوي الغربي على شاكلة: فرانسيس مراش- لطفي السيد- سلامة موسى وآخرون.

[2]) شاكر النابلسي، الليبيراليون الجدد، منشورات الجمل، كولون، ألمانيا، ط1، 2005، ص 20، 21. ورد الموضوع كذلك في: موقع الحوار المتمدن، ع873، 2004 تحت عنوان: من هم الليبراليون العرب الجدد، وما هو خطابهم؟

[3]) المرجع نفسه، ص 21.

6- إن الفكر الديني وهو الفكر الذي جاء به علماء الدين وفقهاؤه ورجاله، وليس الدين الرسولي نفسه، يقف حجر عثرة أمام الفكر الحر وتطوره، كما يقف حجر عثرة أمام ميلاد الفكر العلمي([1])، ونقطة البداية الحقيقية والجذرية هي البدء بالتغيير الشامل، وعدم" قبول التفسير المنغلق والمتعصب للنصوص المقدسة ([2])، والنظر إلى المقدس كدستور ثابت لتنظيم العلاقات المقدسة الثابتة دون سواه، أي علاقة الإنسان بالله، أما علاقة الإنسان بأخيه الإنسان سواء كانت علاقات قانونية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، فهي علاقات أرضية وليست مقدسة، وتتغير بتغيير العصور والأحوال، والمفاهيم، ويحددها ويحكمها دساتير أرضية، وضعية قابلة هي الأخرى للتغيير بمعدل يتواكب مع سرعة تغير ما تحكمه من علاقات، ويقوم العلم بدور محوري في صياغتها([3]). ويبقى الشق الديني الخالص في تقييم الآخر في حدود العلاقة بين الإنسان والله[4]، ليس لإنسان التدخل فيها أو الحكم على طبيعتها، وألا يكون كمن يغتصب ماالله. هذا الفهم للنصوص المقدسة، ومجالات تطبيقها لا يقلل من شأن المقدس، أو يقلص دوره في الحياة، بل بالعكس فيه تكريم للمقدس وتنزيهه عن الاستخدام الانتهازي للدين. ([5])

- موقفهم من الماضي(التراث):

- لا ولاء مطلقا للماضي المحكوم بماضيه فقط، ولا انغلاق عليه وفهم الحاضر يدفعنا إلى إعادة النظر في قيم الماضي، وضرورة خلق المستقبل الذي هو لب الحداثة،لا يمكن إنتاج الحاضر بتاريخ الماضي، وإنما بتاريخ الحاضر والمستقبل كذلك وشرط تخطي الماضي قائم في الحاضر.

- إن ضعفنا، وهزالنا وقلة معرفتنا، وعجزنا العلمي والعقلاني هو الذي يؤدي بنا إلى الاتجاه إما إلى الماضي للاستعانة به لبناء الحاضر، وهي أسوء الخيارات، حيث لا يملك الماضي إلا بماضيه فقط، الذي انتهت صلاحيته في وقت مضى على العرب أن يتخلوا عن المثل الأعلى الموهوم، الذي يتقمصوه تخيلا ومكابرة، واستعلاء والإقرار بأن التاريخ محكوم بالقوانين وليس بهوى الشعوب، ولا بخيالها ولا بتعلقها بماضيها ([6]).

- المراجعة النقدية للماضي لاكتشاف ما قد يمت من عناصر الخلل في الحاضر إلى ميراث الماضي، ومحاولة استخلاص الدروس، حرصا على أن يعيد التاريخ نفسه لأن التكرار في مسيرة الإنسانية لا يمكن إلا أن يكون وبالا وتقهقرا حضاريا، مهما بدا الأمر عكس ذلك ([7]).

---

[1]) شاكر النابلسي، مرجع سابق، ص 22.

[2]) كمال غبريال، الليبيرالية الجديدة وفضاء يتشكل: مقاربة لمانيفستو الليبيراليين الجدد، ضمن شاكر النابلسي، مرجع سابق ص 64.

[3]) لمرجع نفسه، ص 65.

[4]) هنا تظهر بوضوح تأثيرات أفكار الإصلاح الديني وأفكار جون لوك خاصة في نصه رسالة في التسامح

[5]) المرجع والصفحة نفسها.

[6]) شاكر النابلسي، من هم اليبيراليون الجدد، وماهو خطابهم، ضمن شاكر النابلسي، اليبيراليون الجدد، مرجع سابق، ص 22، 23

[7]) كمال غبريال، مرجع سابق، ص 68.

- الإيمان بأن اغتراب العقل لا يحقق غير سيادة الهمجية والغوغائية والمجتمع الدموي، والمطلوب هو طرح أسئلة على كافة المستويات لتجاوز رتابة الماضي، تجاوز يمر بالنسبة إليهم عبر:

- بتبني قيم الحداثة تبنيا كاملا، باعتبارها هي التي تقود إلى الحرية .

- تحرير النفس العربية من أوهامها، والسحر والتعاويذ والشعوذة، التي تحيط بها. ([1])

- تحرير النفس العربية من ماضيها، ومن حكم الأسلاف، الذين مازالوا يحكموننا من قبورهم.

- الإيمان بنسبية المعرفة والحقيقة.

- خلق شخصية عربية جديدة، رافضة لقيم العنف والذل واللاعقلانية والدروشة والقبلية، مؤمنة بالقيم العقلانية.

- العودة إلى الذات ونقدها، والعودة إلى الوعي بالذات لا كأفراد ولكن كأمة. ([2])

والخلاصة انه بمراجعة موقفنا من المقدس، وموقفنا من الماضي، نكون قد مهدنا الأرضية لإقامة البناء الحضاري الليبرالي، الذي تتصدى له مسودة مانيفستو الليبراليين الجدد.

- الموقف من العقل والثقافة العقلانية:

أما المحطة الثالثة، فهي الخطوة الأولى في مرحلة البناء، وتتعلق بدور العقل في التحديث، فبدون اكتساب الثقة بالذات لدى الطفل والشاب والكهل، لن نتقدم خطوة واحدة على طريق العقلانية والتحديث، التي تسود العالم المتحضر، وتتيح توظيف العقل بدرجة من الكفاءة والفاعلية، تكفل إقامة حضارة حديثة ([3]).

- ميكانزمات التطبيق العملي للمشروع:

- تغيير نظام التعليم، والتغيير الشامل في وسائل الإعلام، نظما وكوادر، وإذا ما تتم التحول المطلوب، فإن الطريق سيصبح مفتوحا على مصراعيه لتفعيل العقل في حياتنا، عندها سنطرح أسئلة على كافة المستويات لم يسبق طرحها في الماضي، وسنتمكن من تحرير النفس العربية والشرقية من أوهامها. ([4])

- عدم الحرج من الإستعانة بالقوى الخارجية تطبيق الديمقراطية العربية.

- لا حرج من أن يأتي الإصلاح من الخارج.

- الإيمان بأن لا حل للصراع العربي مع الآخرين سواء في فلسطين أو خارجها، إلا بالحوار والمفاوضات والحل السلمي. ([5])**

---

[1]) شاكر النابلسي، المرجع نفسه، ص 23.

[2]) المرجع نفسه، ص 24.

[3]) كمال غبريال، مرجع سابق، ص 71.

[4]) المرجع نفسه، ص 74

[5]) شاكر النابلسي، مرجع سابق، ص 24.** والمقصود هنا حل القضية الفلسطينية

- الإيمان بالتطبيع السياسي والثقافي، والإعتراف بالواقعية السياسية، وأن التطبيع والتلاقح بين الشعوب والثقافات، هو الطريق إلى السلام الدائم في الشرق الأوسط.

- الوقوف إلى جانب العولمة وتأييدها، باعتبارها أحد الطرق الموصلة إلى الحداثة الإقتصادية العربية التي يمكن أن تقود إلى الحداثة السياسية والثقافية.

- المطالبة بمساواة المرأة مع الرجل مساواة تامة، في الحقوق والواجبات والعمل والتعليم والإرث والشهادة والتوظيف، وتبني مجلة الأحوال الشخصية التونسية، التي صدرت 1957 والتي تعتبر النموذج العربي الأمثل لتحرير المرأة العربية، دون الحاجة إلى تبني قيم الغرب في تحرير المرأة، ومساواتها بالرجل.

هذه هي النقاط الرئيسية أو معالم على طريق التغيير، وفق رؤية الليبراليين العرب في نسختهم المعاصرة. تغير تحتمه حسب رأيهم الحقائق الموضوعية على الأرض ماديا وفكريا، والتي تقول ان العالم العربي أمام خيارين لا ثالث لهما :

- إما الإضمحلال جوعا ومرضا وتخلفا، وإما التغيير الشامل الجذري، والذي أصبحت تطالبنا به –تفرضة- القوى العظمى، التي لم تعد راضية على طريقة عيشنا (على جميع الأصعدة) كوناها" تأذت وستتأذى بمنتجات ثقافتنا المتخلفة أربعة عشر قرنا على الأقل، ذلك الإصرار الذي يتبدّى بنوعيات متدرجة، بداية من المساعدة المادية والعلمية وهو ما يحدث مع الشعوب والحكومات الراغبة حقا في الإصلاح".([1]).

- نقد رؤية الليبراليين العرب:

الناظر في واقع الفكر الليبرالي الذي تبنى الحداثة بجميع أشكالها، يجده حقق انتشارا واسعا في العالم كله خلال العقود الماضية. أما في عالمنا العربي ونتيجة للإمتداد الفكري والسياسي مع الغرب فقد تبنى الكثير من القيم الليبرالية الرأسمالية والسياسة و الديمقراطية على غرار بقي شعوب العالم المتقدم، رغم أننا نلمس ترددا وعدم وجود قناعة تامة بهذا الإنتماء الفكري لليبرالية عند كثير من أبناء تلك الشعوب، بعكس القليل من النخب المثقفة فيها. وهذا التردد راجع أساسا إلى الحمولة الاديولوجية التي ينظر بها إلى "كلمة ليبرالية" في المخيال العربي، والتي لا تخرج عن كونها صنعة أمريكية بامتياز، لا يعمها في الأخير سوى التمكين لعولمة أفكارها.

حيث قامت(أمريكا) من أجل ذلك بمحاولات عديدة لمسخ الهوية الدينية والقومية، وإرغام تلك المجتمعات على تبني ثقافة الحداثة على النمط الغربي، وتسيسها بالفكر الديمقراطي، مما أنتج مع

[1])كمال غبريال، مرجع سابق، ص 74.

تراكمات الزمن وتسلط المستعمر، ردات فعل وأشكالا متطرفة من الأصولية القومية إلى الليبرالية المتطرفة إلى العنف الإسلامي، مما كلف الأمة المزيد من المعانات والويلات الطويلة والمؤلمة والتي مازلنا نعاني من إفرازاتها السلبية إلى وقتنا الحالي. ومع أن استيعاب نخبنا المثقفة للفكر الحداثي كان بطيئا ومتأخر، فإنها لم تكد تضع أقدامها على درجته الاولى، أضحى العالم الغربي ينقد فكره الليبرالي، ويودّع حداثته التقليدية، وينسلخ منها إلى ما أصطلح عليه فلسفيا بـ " ما بعد الحداثة ".

فالأصوات بدأت تعلو بشكل كبير في نقد الحداثة الغربية، وتهميش ذلك الإله المزعوم (الحداثة) الذي قدّس في الكثير من مجتمعات العالم، بعد أن اشتغلت عليه الة النقد من كبار فلاسفة الغرب، أمثال: الفيلسوف الفرنسي (ليوتار) في كتابه الشهير (الظرف ما بعد الحداثي) حيث قدم نقدا عنيفا لمشروع الحداثة الغربي، والفيلسوف الألماني (هابرماس) الذي ذهب إلى أبعد من ذلك وزعم أن الحداثة نفسها لم يكتمل مشروعها، وعزّز هذا النقد للحداثة الغربية وأجنحتها السياسية والعسكرية ما كتبه (جاك دريدا) و (ميشل فوكو) وغيرهما في بيان مهازل الديمقراطية وتناقضاتها الكثيرة. ([1])

إن النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر هي محصلة للإصلاح الديني، والكشوف الجغرافية، والثورة الكوبرنيكية في مجال الطبيعة وتحولات الفكر الفلسفي والسياسي من مكيافلي إلى ديكارت ثم هويز، ثم النزعة الإنسانية بالمتمثلة في إحياء الآداب اليونانية، والنمو المجتمعي والإقتصادي للتجارة والمدن، فمن خلال كل ما سبق تشكل حدث النهضة كقطيعة مفصولة عن العصر الوسيط وموصولة بكل ما كان بإمكانه أن يدعم إمكانية الإبتكار والإبداع، وقد نتج عن هذا الفعل التاريخي النهضوي كما هو معروف نتائج معرفية وتاريخية وسياسية شملت أغلب مظاهر الحياة في أوروبا، في حين أن الحديث عن " النهضة العربية، يتعلق بمشروع بدايات تحول إقتران لميزات خارجية، تمثلت في بروز ظاهرة الهيمنة الإستعمارية، وهي الظاهرة التي ساهمت بصورة رئيسية في تحريك آليات الفعل التاريخي في محيط المجتمعات العربية في الإقتصاد والسياسة والمجتمع والفكر وربما مازالت توجه بصورة خفية آليات ما يجري في مجتمعاتنا([2])

نقول هذا رغم أننا نصادف بعض الكتّاب العرب ممن رفضوا ان تكون الليبرالية العربية مجرد نسخة عن نظيرتها الغربية، وحجتهم في ذلك أن "الحرية ناتجة قبل كل شيئ عن حاجة متولدة في المجتمع العربي شعر بها عدد من الناس، أن يكون التعبير عنها قد استفاد من تجارب أجنبية مماثلة وأن يكون الكتّاب العرب قد تهافتوا على المنظومة الليبرالية لأنهم رأوا فيها عبارة وافية عما يحسون به، فهذا لا يعني أن الدافع الأول في كل هذا كان التأثير الخارجي، والدليل على ذلك هو أن الكتّاب العرب

[1]) بشير موسى نافع، أزمة الخطاب الليبرالي الغربي الجديد، ضمن: شاكر النابلسي، مرجع سابق، ص 155.

[2]) كمال عبد اللطيف، مفاهيم ملتبسة في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1992.

لم ينقلوا بأمانة الليبرالية الأوروبية المعاصرة لهم... إنهم كانوا في حاجة إلى ليبرالية متفائلة حازمة واثقة بذاتها فأولو ليبرالية عصرهم المتشائمة الباهتة حسب رغباتهم ([1])

ومما لا يمكن تجاهله من الناحية، هو أن العرب تعرّفوا على منظومة مكتملة في المرحلة الأخيرة من مراحل تطور الفكر الليبرالي، تعرفوا على ليبرالية تحمل في طياتها آثار المراحل السابقة مرحلة عهد التكوين ومفهوم الذات. مرحلة القرن الثامن عشر ومفهوم الفرد العاقل المالك. مرحلة عهد الردة على الثورة الفرنسية ومفهوم المغامرة الفردية. مرحلة نقد الديمقراطية الإجتماعية ومفهوم المغامرة والإعتراض، بعبارة أخرى، إن العرب تعرفوا على ليبرالية ورثت روح الفلسفة الغربية الحديثة وروح الثورة الفرنسية، وروح الردة على الثورة، وروح النخبوية المعادية للديمقراطية والإشتراكية، إنهم واجهوا منظومة مليئة بالعناصر المتناقضة، وكان من الصعب عليهم أن يتلقوها بعقل ناقد. ([2])

واستغلوا الحرية كشعار، لأنها كانت مطلبا جماعيا يستلزمه طموح العرب إلى العدل والتقدم والرفاهية، ودامت هذه الوضعية مدة طويلة، بحيث يمكن القول إن العهد الذي كانت فيه الحرية مطلبا حيويا للمجتمع، دام من أواسط القرن الماضي إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، كانت في هذه المدة المنظومة الليبرالية هي الأكثر ملاءمة للوضعية العربية، وفي بعض الأحيان كانت الأكثر انتشارا في السوق الفكرية العالمية، ولكنها لم تكن أبدا وحدها ولم تلبث أن واجهت منظومات منافسة قوية، فكثيرا ما استغلّ الكتاب والمفكرون العرب هذه المنظومات الأخيرة لنشر دعوة الحرية.([3])

ولم يستطيعوا أن يميزوا بين المراحل التي ذكرناها في بداية هذا المقال، وأن يفرقوا بين الجذور الثابتة والأصول القارة، وبين الصورة الظرفية التي تلبست بها الليبرالية فحصا نقديا بالمعنى الفلسفي، واتخذوها في صورتها الظرفية كشعار. صحيح أن الشعار كان موافقا لحاجات المجتمع العربي، وإنه لهذا السبب لعب دورا ثوريا مهما جدا، إلا أن عدم استعاب الليبرالية في مسارها التاريخي أثر تأثيرا سلبيا في الفكر العربي في العهد اللاحق.

ومن هنا نشأت خصوصية علاقة المفكرين العرب بالليبرالية، فمن جهة استعملوها كشعار ولم يتجاوز إلى التمثل الفلسفي، ومن جهة ثانية تأثروا بها طويلا إلى حد أنهم أوّلوا مذاهب أخرى تأويلا لبيراليا ([4])

خاتمة:

ما نخلص إليه هو أن الفكر العربي الإسلامي تأثر بما أفرزته النهضة الأوروبية، من نتائج و مكاسب معرفية و علمية و اقتصادية و سياسية. أخذت تشق طريقها و تحتل مكانتها في حياة الإنسان و تدفعها دفعا إلى مزيد التقدم نحو أشكال أرقى من الحياة. الإنسان فيها هو المنطلق و الغاية، الأمر

[1]) عبد الله العروي، مفهوم الحرية، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان: ط4، 2008، ص 70

[2]) المرجع نفسه، ص 53.

[3]) عبد الله العروي، مرجع سابق، ص 70.

[4]) المرجع والصفحة نفسها.

الذي جعل الإنسان ينعتق من الأساطير و الخرافات، و يتحرر من الأطر المغلقة، التي فرضتها عليها الثقافة الدينية التقليدية للمسيحية،

لكننا عندما نقول تأثر يجب ان نبقى على مسافة من هذه الكلمة(تأثر)، وهذا لكي نستطيع ان نجيب على النتائج التي انجرت على هذا التأثر سلبا و إيجابا. فمن الناحية العملية يبقى سوال الرعيل الاول دون اجابة(تقدم الغرب وتخلف المسلمين). وتبقى محاولات الجيل الجديد تراوح مكانها تعيش شبه عزلة فكرية نتيجة لطبيعة المجتمعات العربية الإسلامية من جهة، وفلسفة الحكم في الدولة العربية الما- بعد كلونيالية من جهة ثانية. و هكذا بقيت النخبة المثقفة في العالم العربي(بمختلف أطيافها) تستمد وجودها من تشرذمها و انقسامها و تفتتها ومن صراعاتها البينية، و هي تخوض فيما بينها حروبا كلامية و معاركة فكرية لانهائية،

ونتيجة لذلك فإنها تعاني اغترابا حقيقيا، سواء في علاقتها بالقاعدة الجماهرية، التي تنتمي إليها أو في علاقتها بالواقع الذي تظل عاجزة عن التأثير فيه أو تغيره أو حتى التواصل معه. إن النخبة المثقفة في العالم العربي تعاني حالة بؤس فكري. لأنها فقدت دورها الطليعي والتنويري([1])، و تحولت إما إلى معارضة هزيلة و هشة للأنظمة السياسية القائمة، أو صارت جزء لا يتجزأ من تلك الأنظمة، وفي معظم الحالات صارت النخبة المثقفة معزولة تماما عن أي قاعدة شعبية أو جماهرية، و لذلك تظل مشاريعها الفكرية مجرد مقولات جوفاء، و شعارات برّاقة تخفي ورائها عالما كاملا من البؤس و التخلف و المعانات، فخلف هذا العالم الثقافي المزدان بكافة ألوان المذاهب الفكرية ([2])...يقبع عالم آخر يمتلئ بكافة مظاهر الفقر و الحرمان، عالم تستشري فيه مشاعر الإحباط و السخط و العجز و الإحساس بالقهر و اليأس. إنه عالم الجماهير الصامتة الساخطة التي أعياها البحث عن حلول لأزماتها الإقتصادية و الاجتماعية و السياسية.

[1]) وحتى نكون منصفين فإن لا يمكن الحديث عن تراجع دور المثقف، دون الرجوع للأسباب الحقيقية التي أدت به إلى الاستقالة من الشأن العام والتأثير فيه

[2]) حسن عماد، (أزمة التقدم في العالم العربي) ضمن التنوير و التسامح و تجديد الفكر العربي سبق ذكر ص119، 139